الشَّر

وشجرة معرفة الخير والشَّر

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٦

www.coptology.org

ورد إلى الموقع سؤال من الأخ ج. حكيم تعليقاً على كتاب وراثة الخطيـــة أم سيادة الموت؟ يقول:

أستاذنا الكبير ومنارة هذا الجيل الدكتور جورج بباوي;

جاء في ردكم الرائع على تعاليم "الأنبا بيشوي" غير الأرثوذكسية بعنـــوان: "وراثة الخطية أم سيادة الموت؟"، وتحديداً في صفحة ٦٤ (في مستهل الفصل الرابع):

{في الرسالة إلى الوثنيين يؤكد القديس أثناسيوس ما سبق وذكرناه: "الشر لم يكن له وجود من البدء بل هو غير موجود الآن في القديسين" (١: ٢)؛ لأن الشر من اختراع الإنسان، وهو ثمرة المخيلة، ولذلك اخترع الإنسانُ الشر على صـــورته هـــو ومثاله هو، وهو ما أدى إلى الوثنية.}

نعم سيدي، أتفق معك تماماً في أنَّ الإنسان ليس بالطبيعة شريراً وأنّ الشر لم يكن له وجود من البدء ولكنه وُجد وبدأ عندما داهم فكر الكبريـــاء قلـــب ذلـــك الكروب الشقي واستسلم له. لكنني توقفت طويلاً متحيراً أمام العبارة الـــتي اعقبتـــها "لأن الشر من اختراع الإنسان"!!

فكيف يكون الشر من اختراع الإنسان وهو (أي الشر) موجود قبل وجـــود الإنسان؟ ألا تدلنا شجرة مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّر (تك ٢: ٩) التي غرسها الرب الإلـــهُ في جنة عدن على أن الشر كان موجوداً قبل سقوط الإنســـان الأول؟ وإلا فمـــا دلالـــة التسمية؟

لا يوجد بالكتاب المقدس ما يدعم فرضية سقوط الإنســـان قبـــل ســـقوط "لوسيفر" إن جاز لنا أن نستخدم هذه الفرضية كي ننسب اختراع الشر للإنسان!!!

فإن كان الشر من اختراع العقل الإنساني يترتب على ذلك أن الإنسان بالشر الذي ابتكره عقله مسئول عن سقوط "لوسيفر"، أي هو الذي أغواه وليس العكـــس

كما يعلمنا الكتاب وكما تفضلتم وأشرتم إلى ما كتبه القديس أثناسيوس في رده على أبوليناريوس: {الله لم يخلق الإنسان خاطئاً، بل خلق في عدم خطية، ولكن غواية الشيطان جعلته يعصي وصية الله، فأخطأ للموت...ص ٦}. فهل غواية الشيطان الذي أسماه الكتاب "الشرير" وعلمنا سيدنا المسيح أن نصلي: "ولكن نجنا من الشرير" تخرج عن نطاق الشر؟

رغم الإيجاز الشديد والغموض الأشد اللذان اكتنفا الإصحاحات الأولى من سفر التكوين وعدم الإشارة إلى توقيت خلق الملائكة إلا أن الأمر المفروغ منه والذي لا جدال فيه هو أنّ الإنسان كان آخر المخلوقات. وبناء على ذلك فالذي سقط أولاّ هو الذي عرف الشر وعمله أولاً قبل خلق الإنسان.

الإنسان ضحية حسد وإغواء الشيطان (وهذا طبعاً لا ينفي مسئولية الإنسان الذي خُلِقَ بإرادة حرة واستلم وصية واضحة من الخالق مع تحذير بعقوبة إن خالفها).

آمل أن يسمح وقتكم بتوضيح هذه النقطة بتفصيل أوسع ولكم خالص مودتي وتقديري على عملكم التنويري البديع.

رداً على تعليق الأخ ج. حكيم عن أصل الشر، وبالذات عبارة "الشر من اختراع الإنسان"، وهي عبارة القديس أثناسيوس: "البشر بدأوا يخترعون الشر حسب تصوراتهم" (الرسالة إلى الوثنيين ٢: ١ راجع ترجمة جيدة جداً د. جوزيف مورس ص ٦).

السؤال هنا هو: ما علاقة مخيلة الإنسان بشجرة معرفة الخير والشر؟ والجواب هو أن الإنسان كان يجب عليه أن يأكل من شجرة الحياة التي لم يُمنع من الأكل منها (تك ٢: ٩)؛ لأن الحياة هي مصدر المعرفة، ولكن كان اختيار آدم هو أن تصبح المعرفة هي مصدر الحياة، ولذلك سقط في ازدواجية المعرفة، أي طلب معرفة الخير والشر معاً، أي ما هو موجود، أي الخير (تجسد الكلمة للقديس اثناسيوس ٤: ٥ راجع

ترجمة د. جوزيف فلتس ص ١١)، وأن يسعى إلى ما هو غير موجود في الواقع. ولذلك، يقول أثناسيوس: "كل ما هو شر فهو عدم"؛ لأنه من تصور الإنسان. والشجرة هي تعبير عبراني قديم يؤكد ثلاثة أشياء: أولاً: النمو. ثانياً: الامتداد بالفروع. ثالثاً: التنوع. وهذه الصفات الثلاثة هي صفات نراها في كل شجرة، فهي تنمو، ثم تمتد إلى ما هو أكبر وأطول من الجذر، ثم تتنوع الفروع في عدة اتجاهات. هذا ما تراه في المعرفة الإنسانية؛ لأنها الآن -إذا بدأنا من الصفة الثالثة- متنوعة بشكل فائق. وقد جعل التنوع كل إنسان عاجزاً عن أن يحيط بكل فروع المعرفة من علوم وفلسفة ... الخ. وهي معرفة تمتد من جيل إلى جيل، ولذلك جاء مع كل معرفة إنسانية جيدة وصالحة إمكانية استخدام هذه المعرفة في التدمير والقتل. ولعل ما نراه الآن على شبكة المعلومات، وهي أكبر ثورة معرفية في عصرنا، دليل دامغ على ما نقول، فقد دخل على الشبكة الأفلام الإباحية وطرق صنع القنابل والسموم وفنون الاغتيالات وتزوير التاريخ، بجانب ما هو جيد ونافع جداً، ويصبح على الإنسان أن يختار من شجرة الانترنت أو شبكة المعلومات ما يلائمه.

أما آدم فقد أدرك أنه إذا طلب معرفة الشر استطاع أن يتفوق، وأن يرى كما قال أوغسطينوس "الجانب المضاد للخير"، وهو حب الاستطلاع والفضول الذي له أصل في كيان الإنسان، أي صورة الله ومثاله التي كان يجب أن تدفعه إلى الممارسة والاختبار قبل الخيال والتصور وإدراك حقيقة وجود الكائنات، بل حقيقة وجوده هو كإنسان بأنها تعود إلى إله الخير الذي لا شَرَّ فيه، وهو ما أسهب في شرحه القديس أثناسيوس (الفصل الثاني في الرد على الوثنيين ص ٦-٩). واستخدام كلمة "الجنة" كاسم رمزي (٢: ٤ ص ٩)، يؤكد أن ما حدث كان أكبر من أن يعبِّر عنه سفر التكوين بدون رموز.

لذلك يؤكد أثناسيوس أن النفس الإنسانية كان لديها القدرة من خلال ذاتها أن ترى الله كما في مرآة -كما يقول الرب: "طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله" (متى ٥: ٨)، فقد تحول الإنسان بفكره من إدراك الأمور الإلهية إلى "ما هو عكس

ذلك" (الوثنيين ٣: ٣ ص ١١)، فالابتعاد عن الخير (الوثنيين ٤: ٢ ص ١٣)، وهو بالتحديد: "التفكير في أمور لا وجود لها محولة القوة التي تملكها في داخلها ... في رفضها للخير بالقطع سوف تفكر فيما هو ضد الخير (٤: ٣ ص ١٤). ويعود أثناسيوس فيقول: إن ما له وجود لأن الله خالقه هو الخير: "ما له كينونة فهو الخير، أما الذي لا كينونة له فهو الشر، وأقول إن ما له كينونة فهو الخير لأنه يجد له نموذجاً في الله الكائن، أو لأنه يستمد كيانه من الخالق الذي رتَّب تكوينه، وما لا كينونة له فهو الشر؛ لأنه لا يوجد في الواقع، إلا أنه تم اختراعه بالخيالات داخل أفكار البشر .. " (٤: ٣ ص ١٤).

هل كانت الشجرة هي مصدر ازدواجية المعرفة؟

الجواب: بكل تأكيد لا، فقد سبق شجرة المعرفة، أي معرفة الخير والشر، شجرة الحياة؛ لأن من يحيا يعرف، ومن لا يحيا، بل يريد أن يعرف فقط دون أن يكون لحياته مصدراً للمعرفة، هو ما نراه في الواقع الإنساني نفسه من تدمير وقتل وزرع المتفجرات والاعتداء على الأبرياء وقطع الرؤوس وما إليها من فظائع نابعة من عقل الإنسان. لقد اكتشف الإنسان الحديد وتحول الحديد إلى عمل السيوف، فالمشكلة ليست في وجود الحديد، بل في خيال الإنسان الذي يريد أن يدمر غيره. والآن، الطاقة الذرية قبل اختراعها في شكل قنبلة أبادت هيروشيما وناجازاكي في الحرب العالمية الثانية، فالمشكلة سوف تبقى دائماً: ليس ما هو موجود، بل كيف نستعمل ما هو موجود. ولنا مثال معاصر، فقد خدمت المياه جيش مصر في حرب ١٩٧٣. إذن نحن أمام قصة لا يمكن ان تُكتب في تلك الحقبة من تاريخ الإنسان إلاَّ بشكل رمزي، وهو ما يجعل القصة تشير إلى الحقيقة التي لا تزال معنا.

الحياة الحقيقية والمعرفة حقيقية:

الحياة الحقيقية تفرز معرفةً حقيقيةً، والحياة المزيفة هي التي تفرز معرفة مزيفة،

ولذلك منع الله آدم من الأكل من شجرة الحياة حتى لا يحيا إلى الأبد، أي يحيا في حياة مزدوجة، ثنائية. الموت فكرة تدخل عقل الإنسان قبل أن يموت، ولذلك دخلت كلمة النهاية وكلمة الموت وكلاهما له ذات المعنى الواحد في الواقع.

يبقى لديَّ ملاحظة هامة أتركها لك لكي تفكر فيها وحدك: إذا كان الشر من اختراع الإنسان ولا وجود له، أي ليس هو مثل الجبال والأنهار والشجر، بل يولد من فكر الإنسان ويمس ويغير الواقع، ولذلك يقول المزمور عن الأشرار: "تتبدد أفكارهم عند موتهم (عند شيول)"، فهذا هو ما يجعلنا نعيد التفكير في عبارة رسول الرب في (٢كو ٥: ١٧-٢١)، إذ كتب الرسول إن الرب صار خطية لأجلنا، فالخطية ليس لها وجود مادي، هي أفكار ومشاعر في قلب الإنسان قال عنها الرب: "من الداخل (قلوب البشر) تخرج الأفكار الشريرة: زنى، فسق، قتل، سرقة، طمع، خبث، مكر، عهارة، عين شريرة، تجديف، كبرياء، جهل" (مرقس ٧: ٢١-٢٢)، فالرب إذن صار ذبيحة خطية، ولم يحمل خطية بالمعنى الحسي، بل مات، والموت هو الوجه الآخر لذات العملة، أي الخطية (راجع رو ٥: ١٢-٢١).

لا زالت الإنسانية تأكل من شجرة معرفة الخير والشر، وصحف وجرائد أي يوم تؤكد لنا جميعاً ذلك، ليس فقط في جرائم الشر، بل ما يفعله القادة دون أي تفكير في عاقبة الأمور أو حساب المستقبل.

سقوط الشيطان:

لم يقدم لنا التسليم الكنسي الكثير عن سقوط الشيطان؛ لأننا لا يجب أن ننشغل بالأمور التي تفوق إدراك الإنسان والتي لا تمس حياته اليومية، وطبعاً -كما يذكر سفر الحكمة: "بحسد إبليس دخل الموت إلى العالم" (صلاة الصلح أيضاً)، فالجانب السمائي كائن وفعال، ولكن علينا أن نهتم بما ذكره الرب، أي بالقلب.

أرجو أن أكون قد أجبت على سؤالك. الرب معك.